الفصل الرابع

عمله فى أوروبا

العروة الوثقى

أخفقت الثورة العرابية، واحتل الإنجليز مصر، فسمحوا للسيد بالذهاب إلى أى بلد، فاختار الشخوص إلى أوروبا، فقصد إليها سنة ١٨٨٣، وتعلم الفرنسية وهو كبير وأول مدينة وردها مدينة لندن، أقام بها أياما معدودات، ثم انتقل إلى باريس، وكان تلميذه الأكبر الشيخ محمد عبده منفيا فى بيروت عقب إخماد الثورة، فاستدعاه إلى باريس، فوافاه إليها.

جمعية العروة الوثقى

وهناك أصدر جريدة (العروة الوثقى)، وقد سميت باسم الجمعية التى أنشأتها، وهى جمعية تألفت لدعوة الأمم الإسلامية إلى الاتحاد والتضامن، والأخذ بأسباب الحياة والنهضة، ومجاهدة الاستعمار، وتحرير مصر والسودان من الاحتلال البريطانى، وكانت تضم جماعة من أقطاب العالم الإسلامى وكبرائه، وكانت الدعوة إلى اتحاد الشرقيين تتردد وتتوالى فى معظم مداولاتها، إذ رأى الحكيمان أن تفرق الكلمة هو الثغرة الأولى التى ينفذ منها الاستعمار لتحقيق أهدافه فى البلاد الشرقية.

جريدة العروة الوثقى

وهذه الجمعية هى التى عهدت إلى السيد بإصدار تلك الجريدة لتكون لسان حالها، فكان مديرًا لسياستها، والشيخ محمد عبده رئيسًا لتحريرها.

واشتركا معًا فى تحريرها، وكانت مقالاتها جامعة بين روح جمال الدين، وقلم الأستاذ الإمام، فجاءت آيات بينات فى سمو المعانى، وقوة الروح، وبلاغة العبارة، وهى أشبه ما تكون بالخطب النارية، تستثير الشجاعة فى نفوس قارئها، وتدانى فى روحها وقوة تأثيرها أسلوب الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى خطبه الحماسية المنشورة فى (نهج البلاغة)، ولا غرو فالسيد جمال الدين هو قبس من نور العترة الحسينية العلوية، فكأن روح الإمام على تمثلت فيه، وتجلى أثرها فيما يكتبه أو يمليه.

هى رد فعل للاحتلال

ذكر الأمير شكيب أرسلان أنه سمع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول: «إن الأفكار فى العروة الوثقى كلها للسيد ليس لى فيها فكرة واحدة، والعبارة كلها لى ليس للسيد فيها كلمة واحدة».

وقد جمع الأستاذ عبد القادر المغربى أحد تلاميذ الحكيم الأفغانى النسخ الأصلية لما ظهر من جريدة (العروة الوثقى) فكانت ثمانية عشر عددًا وذكر أن هذه صورة ما كان مكتوبًا على رأس كل عدد منها:

العروة الوثقى
لا انفصام لها
جريدة سياسية أدبية تصدر يوم الخميس

مدير السياسة	المحرر الأول
جمال الدين الحسينى الأفغانى	الشيخ محمد عبده

ترسل الجريدة إلى جميع الجهات الشرقية
قد عينت أجرة البريد خمسة فرنكات
فى السنة لمن تسمح بها نفسه[١]
من شاء أن يبعث إلينا بتحارير
أو رسائل فى أى موضوع كان رغبة
نشره فى الجريدة أو التنبيه على أمر
مهم فليرسلها إلى إدارة الجريدة
بهذا العنوان:

6 Rue Hartel, à Paris

وقد صدر من الجريدة ثمانية عشر عددًا، ظهر العدد الأول منها فى يوم الخميس ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤.

أى قبل أن ينقضى عامان على الاحتلال البريطانى.. ولقد كانت وقائع الثورة العرابية، والمؤامرات التى دبرتها السياسة الإنجليزية لإحباطها. واحتلال إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢. وتغلغل النفوذ البريطانى فى شئون الحكومة كافة، ومحاربة الإنجليز للروح الوطنية فى مصر، كل ذلك كان له أثره فى ظهور جريدة العروة الوثقى، بحيث يصح القول بأن صدورها كان رد فعل للاحتلال الأجنبى، وثورة عليه، وكانت كتاباتها دعوة صادقة للجهاد ضد الاستعمار، موجهة إلى الأمة المصرية وإلى الشرقيين كافة، لأنهم جميعًا هدف للمطامع الاستعمارية.

فاتحة العدد الأول

وفيما يلى فاتحة العدد الأول من جريدة (العروة الوثقى).

---

(١) جمال الدين الأفغانى - ذكريات وأحاديث - لعبدالقادر المغربى ص١٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

«ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير». هذا ما تمده العناية الإلهية من قول الحق، متعلقًا بأحوال الشرق، وعلى الله المتكل، فى نجاح العمل.

«خفيت مذاهب الطامعين أزمانًا ثم ظهرت، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت، أوغل الأقوياء من الأمم فى سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام، وبلغوا بهم من الضيم حدًّا لا تحتمله النفوس البشرية.

«ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم، ويغرى به شيطان الخيال، فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عمالها، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير، فى النزر اليسير، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان، فإن تقلبات الحوادث فى الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت فى سواد أمة عظيمة، ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها، فلم يجز فى زمن من الأزمان إمحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها فى العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة، وإن بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال.

«والذى يحكم به العقل الصريح، ويشهد به سير الاجتماع الإنسانى من يوم علم تاريخه إلى اليوم، أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لافتراق فى الكلمة، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد، أو ركون إلى راحة لا تدوم، أو افتتان بنعيم يزول، ثم صالت عليها قوة أجنبية، أزعجتها ونبهتها بعض التنبيه، فإذا توالت عليها وخزات الحوادث وأقلقتها آلامها، فزعت إلى استبقاء الموجود، ورد المفقود، ولم تجد بدًّا من طلب النجاة من أى سبيل، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية، وهى ما تكون بالتئام أفرادها، والتحام آحادها، وأن الإلهام الإلهى والإحساس الفطرى والتعليم الشرعى، ترشدها إلى أن لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شىء عليها.

«إن النفوس الإنسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت إذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الإمكان، فإذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس إلى قواها، واستأسد ذئبها، وتنمر ثعلبها، والتمست خلاصها، ولن تعدم عند الطلب رشادًا.

«ربما تخطىء مرة. فتكون عليها الدائرة، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع فى مثله، فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة، وإن الحركة التى تبعث لدفع ما لا يطاق إذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر لسيرها، لا يكفى فى توقيف سريانها أو محو آثارها قهر ذاك القيم وإهلاك ذاك المدبر، فإن العلة مادامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها، فإن ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة، نعم يمكن تخفيف الأثر أو إزالة علته ورفع أسبابه.

«جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها فى الأخلاق والعادات والمشارب، وان لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها، فكيف بها إذا حملها مالا طاقة لها به، لا ريب أنها تستنكره، وإن كانت تستكبره، وكلما أنكرته بعدت عن الميل إليه، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريبًا، تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب.

«إن مجاوزة الحد فى تعميم الاعتداء تنسى الأمم ما بينها من الاختلاف فى الجنسية والمشرب، فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر، الزم من التحزب للجنس والمذهب، وفى هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها إليه للاشتراك فى طلب المنفعة.

«أبعد هذا يأخذنا العجب إذا أحسسنا بحركة فكرية فى أغلب أنحاء المشرق فى هذه الأيام؟ كل يطلب خلاصًا ويبتغى نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل إليه فكره على درجته من الجودة والأفن[1]، وأن العقلاء فى كثير من أصقاعه يتفكرون فى جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل.

(١) ضعف الرأى.

«بلى، كان هذا أمرًا ينتظره المستبصر وإن عمى عنه الطامع، وليس فى الإمكان إقناع الطامعين بالبرهان، ولكن ما يأتى به الزمان من عاداته فى أنبائه بل ما يجرى به القضاء الإلهى من سنة الله فى خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون.

«بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك المتغلب منهم نكايته، خصوصًا فى المسلمين، فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جورًا، وذوو حقوق فى الإمرة حرموا حقوقهم ظلمًا، وأعزاء باتوا أذلاء، وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، وأصحاء أضحوا سقامًا، وأسود تحولت أنعامًا، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من إفراط الطامعين فى أطماعهم، خصوصًا من جراء هذه الحوادث التى بذرت بذورها فى الأراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى ذوى المطامع فيها.

«حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها، وألزموها ما ليس فى قدرتها فاستعصت عليه قواها، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع، فكانت الحركة العرابية العشواء، فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين، فاندفع بهم سيل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد، وظنوا بلوغ الأرب، ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا.

«لم تكد تخمد تلك الحركة فى بادئ النظر حتى خلفتها حركة أخرى، وفتح باب كان مسدودًا، وقام قائم بدعوة لها المكانة الأولى فى نفوس المسلمين، بل هى بقية آمالهم، ولا ندرى الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة، وربما يوجد من يدرى أن مسبيبها فى حيرة من تلافيها، نعم إنهم غرسوا غرسًا إلا أنهم سيجنون أو هم الآن يجنون منه حنظلاً، ويطعمون منه زقومًا. لا جرم هذه هى العواقب التى لا محيص عنها لمن يغالى فى طمعه، ويغلغل فى حرصه، ولو أنهم تركوا الأمر من ذلك الوقت لأربابه، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به، والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته، أو اقتناء فائدته، لحفظوا بذلك مصالحهم، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة، بدون أن تزل لهم قدم أو ينكس لهم علم.

«غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الأهواء، وهو أنفذ عواملهم وأقتلها، وما علموا أنه وان كان ذريع الفتك إلا أنه سريع العطب، وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين، فإن بلاء الجور إذا حل بشطر من الأمة وعوفى منه باقيها، كانت سلامة البعض تعزية للمصابين، وحجاب غفلة للسالمين، يحول بينهم وبين الإحساس بما أصاب إخوانهم، أما إذا عم الضر، فلا محالة يحيط بهم الضجر، ويعز عليهم الصبر، فيندفعون إلى ما فيه خيرهم، ولا خير فيه لغيرهم.

«ان الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عمومًا، إن مصر تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة، ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظرًا لموقعها من الممالك الإسلامية، ولأنها باب الحرمين الشريفين، فإن كان هذا الباب أمينًا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية.

«إن الخطر الذى ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين، وتكلمت به قلوبهم، ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغارا، وما هذا بغريب على المسلمين، فإن رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة. ومادام القرآن يتلى بينهم وفى آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم.

«إن الفجيعة بمصر حركت أشجانًا كانت كامنة، وجددت أحزانًا لم تكن فى الحسبان، وسرى الألم فى أرواح المسلمين سريان الاعتقاد فى مداركهم، وهم من تذكار الماضى ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيرًا، بل نفيرًا عامًا، بل يكون صاخة تخرق مسامع من أصمه الطمع.

«إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له فى فتوحاته إلا المداهاة، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة، ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد إليه يده إلا المراضاة، يظهر بصورة مختلفة الألوان، متقاربة الأشكال، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم، ومثبت مراكز الأمراء ومسكن الفتن، ومخلص الحكومات عن غوائل العصيان، وواقى مصالح

المغلوبين، فكان أول ما يجب عليه ملاحظته فى سيره هذا أن لا يأتى من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذى يكفى لتمزيقه رجع البصر، وكر النظر، وأن يتماشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها إذا حنقت خنقت، وليس له أن يغتر بعدم مكنتهم، وهو يعلم أن الكلمة إذا اتحدت لا تعوزها الوسائط، ولا يعدم المتحدون قويا شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته، وأن المغيظ لا يبالى فى الإيقاع بمناوئه أسلم أو عطب، فهو يضر ليضر، وإن مسه الضر.

«إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند إلى مكة، ومن مكة إلى مصر، والكرير[1] الممتد من مصر إلى مكة ومن مكة إلى الهند، وكلها تتلاقى بين تراقى المغرورين بقوتهم، المسترسلين فى جفونهم.

«إن الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها، فأيقظت أفكار العقلاء، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمورهم، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم إلى ما هم فيه، فتقاربوا فى النظر، وتواصلوا فى طلب الحق، وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلاً حسنًا يسلكونه لوقاية الدين والشرف، وإن فى الحاضر منها لنهزة تغتنم، وإليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم، ولئن فاتت فكم فى الغيب من مثلها، وإلى الله عاقبة الأمور.

«تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار. خصوصا البلاد الهندية والمصرية، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه، ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع، لا ينون فى السعى، ولا يقصرون فى الجهد، ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حى على حياته.

«ولما كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضارعهم فى مثل حالهم، رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم، ويحبون العدالة العامة

(١) الكرير صوت من الصدر كصوت المختنق.

ويحامون عنها من أهالى أوروبا، وكتبوا على أنفسهم النظر فى أمر السلطة العامة الإسلامية وفروض القائم بها، وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين، ومناط اليقين، وفيها موسم الحجيج العام فى كل عام، يجتمع إليه الشرقى والغربى، ويتآخى فى مواقعها الطاهرة الجليل والحقير، والغنى والفقير، كانت أفضل مدينة تتوارد إليها أفكارهم ثم تنبث إلى سائر الجهات، والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل.

«ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر، وأقرب إلى الظفر، يستدعى أن يكون للداعى فى كل قلب سليم نفثة حق، ودعوة صدق، ودعوة صدق، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم، بين من خفى عنه شأنهم من إخوانهم، واختاروا أن يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم، وهو اللسان العربى، وأن تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم، وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية، تنبيها للغافل، وتذكيرًا للذاهل، فرغبوا إلى (السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى) أن ينشىء تلك الجريدة، بحيث تتبع مشربهم، وتذهب مذهبهم، فلبى رغبتهم، بل أدى حقًا واجبًا عليه لدينه ووطنه، وكلف (الشيخ محمد عبده) أن يكون رئيس تحريرها، فكان ما حمل الأول على الإجابة حمل الثانى على الامتثال، وعلى الله الاتكال فى جميع الأحوال».

احتوت المقالة كما ترى نداء قويًا للأمم الشرقية أن يتحد أبناؤها لدرء الأخطار المحدقة بهم المهددة لكيانهم، وفيها دعوة للمواطنين فى كل أمة شرقية أن يتكتلوا وينبذوا الفرقة والانقسام. ويقاوموا الاستعمار بكل ما لديهم من حول وقوة، وثبات وإيمان. وفيها استنكار للاحتلال البريطانى الذى نكبت به مصر سنة ١٨٨٢، وإشادة بمركز مصر فى الشرق ودعوة صادقة لتحريرها من نير الاحتلال، وتحذير المصريين من أن يثقوا بوعود الإنجليز الكاذبة.

منهج الجريدة

وفى العدد نفسه مقالة عن منهج الجريدة. جاء فيها:

«سنأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات، والاحتراس من غوائل ما هو آت.

«ويستتبع ذلك البحث فى أصول الأسباب ومناشىء العلل التى قصرت بهم إلى جانب التفريط، والبواعث التى دفعت بهم إلى مهامه حيرة عميت فيها السبل، واشتبهت بها المضارب، وتارة فيها الخريت[١]، وضل المرشد، حتى لا يدرى السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة، والمزعجات المدهشة، والمدهشات القاتلة.

«وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين، ولبست عليهم مسالك الرشد، وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين، حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم، وظنوا أن زمان التدارك قد فات، وأن العلة بلغت حدها.

«وتحاول أشراب الأفهام أن لا حاجة فى الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة، تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم. وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الإدبار عن المطلوب وهو تحت الجناح، ويكفى فى الوصول إليه عطفة نظر، وقطع بعض خطوات قصيرة.

«وإن الظهور فى مظهر القوة لرفع الكوارث، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم، وهى ما تمسكت به أعز دولة أوروبية وأمنعها[٢] ولا ضرورة فى إيجاد المنعة إلى اجتماع الوسائط، وسلوك

---

(١) الخريت الدليل الحاذق الذى يهتدى إلى أخرات الأرض أى مضايقها وطرقها الخفية.

(٢) يريد روسيا.

المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجأ للشرقى فى بدايته، أن يقف موقف الأوروبى فى نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا أعجزها وأعوزها.

«وتنبه على أن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية، فإن فقد التكافؤ لم تكن الروابط إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف، وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة، المدبج بأشكال المجاملة، شفافًا ينم عما وراءه، وتنقب عن المسالك الدقيقة، التى يسرى بها الطامعون فى دياجير الغفلات.

«وتهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عمومًا والمسلمون خصوصًا من التهم الباطلة التى يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم، ولا وقوف على حقائق أمورهم، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون.

«ولا تهن فى تبليغ الشرقيين ما يسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون فى شئونهم، مع اختيار الصادق، وانتقاء الثابت.

«وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة فى أفرادها، وتأييد المنافع المشتركة بينها، والسياسات القويمة التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين.

«ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها، والحاملين عليها، لا تظهر إذا أدلجوا، ولا تنجد إذا غوروا وتذهب مذاهب الرشد وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق فى أزلى علم الله هدايته، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

«وترسل إلى الذين نعرف أسماءهم مجانًا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير، والغنى والفقير، ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذى يريده والله الموفق».

* * *

اتخذت العروة الوثقى شعارها إيقاظ الأمم الإسلامية، والمدافعة عن حقوق الشرقيين كافة، ودعوتهم إلى مقاومة الاستعمار الأوروبى، والجهاد فى سبيل الحرية والاستقلال.

منع العروة الوثقى من دخول مصر والهند

وقد ذاع شأنها فى العالم الإسلامى، وأقبل عليها الناس فى مختلف الأقطار، ولكن الحكومة الإنجليزية أقفلت دونها أبواب مصر والهند، وشددت فى مطاردتها واضطهاد من يقرؤها، بل كانت تتوجس منها خيفة وتعد العدة لمصادرتها قبل ظهورها.

وفى ذلك تقول فى عددها الخامس الصادر بتاريخ ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ - ١٠ أبريل سنة ١٨٨٤.

«لو نادينا الغافلين أن انتبهوا، والنائمين أن استيقظوا، واللاهين بحظوظهم أو أمانيهم وأوهامهم أن التفتوا، ولو أنذرنا أهل مصر بأن الإنكليز لو ثبتت أقدامهم فى ديارهم لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم وخطرات قلوبهم، بل على استعداد عقولهم لما عساه يخطر ببالهم، لقال الناس إننا نبالغ فى الإنذار ونغرق فى التحذير، ولو بينا لهم أن الإنجليز يؤاخذون الأبناء بذنوب الآباء، والأحفاد بجرائم الأجداد، ويطالبون الذرارى بدفائن أسلافهم، وإن لم يكن للخلف علم بما ترك السلف، لعدوا هذا البيان منا شططًا فى المقال وميلًا عن الاعتدال...» إلى أن قالت الجريدة: «فلا نذكر ولا نبين. ولا نحكى ولا نقص. ولكن نعرض عليهم نموذجًا من المعاملة لعله يكون للمتبصرين مرآة تحكى ما يغيب عنهم من لوازم السلطة الإنكليزية. عزمنا على إنشاء جريدتنا هذه، فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الإنكليزية المهمة أخذتهم الحدة، واحتدمت فيهم نار الحمية، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة فى سياسة الإنكليز ونفوذها فى البلاد الشرقية، ولجوا فى إغرائها بها، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة

لمنع الجريدة من الدخول فى البلاد الهندية والبلاد المصرية، كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا.

إلى أن قالت: «ولكن فلتعلم الحكومة الإنجليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا فى البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة أو بوسيلة أخرى إذا دعا الحال، فإن أنصار الحق كثيرون».

ولم تطق بريطانيا صبرًا على جريدة العروة الوثقى وعملت على منع دخولها فى مصر والهند، فأوعزت إلى الحكومة المصرية بمصادرتها وتغريم كل من توجد عنده من خمسة جنيهات إلى خمسة وعشرين جنيهًا، قالت الجريدة فى هذا الصدد فى عددها التاسع الصادر فى ٢٥ رجب سنة ١٣٠٢ (٢٠ مايو سنة ١٨٨٤) ما يلى:

«انعقد مجلس النظار المصرى فى القاهرة[١] واهتم بالبحث فى شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية قاضيًا عليها بأن تشتد فى منع هذه الجريدة عن دخول الأقطار المصرية، وتراقب جولاتها فى تلك الديار، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة (عموم البوسطة) يلزمها الدقة فى ذلك، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغا من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهًا (وهى غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنكليز فى مصر)[٢].

«أما نحن فلا نظن أحدًا من النظار المصريين له رأى اختيارى فى هذا القرار، بل لا نتوهم فى المستوى على كرسى الخديوية ميلًا إلى مثل هذا الحكم، ولا يختلج فى صدورنا أن مصريًا من أى مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم، بل ولا شرقيا ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانبًا من العدل.

«هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم، ولها سعى بل كل السعى لخيبة آمال أعدائهم، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح فى عمرو،

---

(١) كانت الوزارة برياسة نوبار.

(٢) كما جاء فى (العروة الوثقى) عدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤.

فإن المقصد أعلى وأرفع من هـذا، وإنما عملهـا سكب مياه النصـح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عمومًا على الصفاء والوداد، تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم، ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق الناهب.

«هذا منهاج (العروة الوثقى) علمه كل مطلع على مـا نشر فيهـا من يوم نشأتها إلى الآن. فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقيًّا مسلمًا أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره، ولكنا نعلم أن حركات الآمرين فى القطر المصرى هذه الأيام قهرية لا يخالطها شىء من الاختيار، والمدير لرحى الفخر عليهم هم عمـال الإنجليز.

«ولا نريد أن نقول للإنكليز إنهم ظلموا فى هذا الحكم فإن الجريدة لم يوجد فيها إلى الآن ما يزيد على ما تنشـره الجرائـد الوطنيـة والأجنبية من كشف مساتيرهم، وبيان الرزايا التى أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم[1]. لأنهم الإنكليز الذين إذا أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين فى الهند وإقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعوا بجلبه إلى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله إليها يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير إلى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو إليه ويسأله: هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث؟ فإذا قال نعم. قال له فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا، فإذا أجابه بأنى درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادى بهذا إلا لأنه كتاب دينى، ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل يبين فيها رأيه فى الآية أو الحديث، فإن مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه، ولم يبدل عقيدته، ولم يبادر بإرسال تحريفه وتبديله وخروجه عن دينه إلى مطبعة من المطابع ليطبـع وينشر - بعثت به الحكومة إلى جزيرة (أندومان)[2] نفيًـا مؤبدًا، ولـو رأيت الجزيرة لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين.

---

(١) الحلول بمعنى الاحتلال.

(٢) جزيرة بالمحيط الهندى.

«فدولة الإنكليز التى تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم، وما يمكن أن يهجس من حديث نفوسهم، لا ريب أنها تعد وجود لفظ الإسلام فى جريدة كافيًا لمنعها عن الدخول إلى بلاد لها فيها قدم ثابت، أو تسعى فى تثبيته، بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصًا علق عليه هذا الاسم من أى جنس كان، فلا غرابة فى صدور مثل هذا الجور منها، غير أننا نعلن لها أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم، وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة فى كل بقعة تحوطها السلطة الإنجليزية الظالمة، وذلك بعزائم أولى العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى.

«بلغنا أن بعضًا من الناس يسل سيفه ويشحذ سنانه لمناضلة الولى الحميم، ويقابل ثناءه بالذم، ومدحه بالقدح، وإحسانه بالإساءة، ويواجه نصيحته بالظنة. ولا نظن أن هذا منه عن عمد ولا إغراء عدو، وإنما هو لشبهة حجبت نظره عن إدراك الحقيقة، فإذا كشفت له الأيام عن الواقع رجع إلى الندم على ما صدر منه، وكانت له مثابة إلى الحق وركون إلى الصواب.

«لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع (العروة الوثقى) عن دخول القطر المصرى وليعلموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها فى هذا المنع، فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شىء فيها سوى الدفاع عن الشرقيين، وإنما منشؤه حكومة إنجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها».

تقصد الشرقيين عامة
لا المسلمين وحدهم

وكانت دعوة (العروة الوثقى) موجهة إلى الشرقيين عامة لا المسلمين وحدهم، وفى ذلك يقول جمال الدين فى عدد ١٨ رجب سنة ١٣٠١ هـ (١٥ مايو سنة ١٨٨٤): «لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانًا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى

أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما يخيل إليه ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ولكن الغرض تحذير الشرقيين عمومًا والمسلمين خصوصًا من تطاول الأجانب عليهم والإفساد فى بلادهم، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب فى الأقطار التى غدر بها الأجنبيون وأذلوا أهلها أجمعين واستأثروا بجميع خيراتها».

obeikandl.com